﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾ [الفرقان: 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين ابتغاء الرَّسولِ الأجرَ منَ اللهِ تعالى والتَّوكُّلِ عَلَيْهِ وحده في الأُمورِ كُلِّها

لَمّا كانَ المقصودُ من قولِه تَعالى قبلُ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ رَدَّهُم عَن غيِّهِم وعِنادِهم، وكان ذلكَ غايَةً في الصُّعوبَةِ، وكان هَذا الكلامُ لا يَرُدُّ مُتَعَنِّتِيهِم – وهُمُ الأكثَرُ – الَّذين تُخْشى غائِلَتُهُم؛ أَعْقَبَ اللّهُ تَعالى ذَلِكَ بِأَمرِ نَبيِّه ﷺ بِإِظْهارِ العَجْزِ والاستسلام، والاعْتِمادِ في أَمرِهِ كُلِّه على ربِّه ﷻ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾: (وكل) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها على الاعْتِمادِ في الأَمرِ، ومِنْهُ التَّوَكُّل، وهو: إِظْهارُ العَجْزِ في الأَمرِ والاعْتِماد عَلى غَيْرِكَ[2]، والتَّوْكيلُ: أَن تَعْتَمِدَ عَلى غَيْرِكَ، وتَجْعَلَهُ نائِبًا عَنْكَ[3]، ويقالُ: "وكل إليه الأمر وكولًا، وهذا موكول إليك، ووكلته إلى اللّهِ وواكلتُه، وتواكلوا، وفلان وكلٌ ووكلةٌ تكلةٌ، ومواكلٌ: ضعيف يتَّكل على غيره، وتقول: توكَّل على اللّه، ولا تتَّكل على غيره"[4]، والوكيل: اللّه ﷻ؛ لأنَّ الأمور توكَل إليه، قال تَعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمل: 9]، والوكيل من النّاس: الَّذي يوكَّل على الشَّيء، والجمعُ: الوكلاء[5]، وحقيقَةُ التَّوَكُّل شَرْعًا: صِدْقُ اعْتِمادِ القَلْبِ عَلى اللّهِ سُبْحانَهُ، في تحصيلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 412 - 413.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(3) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (وكل).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (وكل).
(5) الحميري، شمس العلوم: (وكل).

المَصالِحِ، ودَفْعِ المضارِّ، من أمورِ الدُّنيا والآخرةِ، وتَفْويضُ الأمورِ كُلِّها للهِ تَعالى، وتحقيقُ الإيمانِ بِأَنَّهُ لا يُعْطي، ولا يَمنَعُ، ولا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ سِواهُ[1].

2) ﴿ٱلْحَيِّ﴾: (حيا) تَدورُ اشْتِقاقاتُها عَلى أَصْلَيْنِ: أَحَدهُما: ضِدُّ المَوْتِ، والآخَرُ: ضدُّ الوقاحَةِ، فالأوَّلُ: الحياةُ، ومِنْهُ سُمِّيَ المَطَرُ حيًا؛ لأنَّه سببٌ لِحَياةِ الأَرْضِ، ومِنَ الأَصْلِ الآخَرِ: الحَياءُ والاسْتِحْياءُ[2]، والحياةُ: ضِدُّ الموتِ، والحَيُّ: ضِدُّ الميِّتِ، والمَحْيا: مَفْعَلٌ مِنَ الحياةِ، تقولُ: مَحْيايَ ومَماتي، والجَمعُ: المَحايي، وزعموا أنَّ الحيَّ بالكسر: جمع الحياة[3]، والحيُّ الَّذي لا يَموتُ: هو اللهُ ﷻ، وهو من صِفاتِ الأَزَلِ، تقول: لم يزل اللهُ حيًّا، ولا يزال سبحانه[4]، والحَيُّ مِن أَسْماءِ اللهِ تَعالى: هو صاحِبُ الحَياةِ الكامِلَةِ المُتَضَمِّنَةِ لِجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، لَم تُسْبَقْ بعدَمٍ، ولا يلحَقُها زوالٌ، ولا يَعْتَريها نَقْصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ[5].

3) ﴿وَسَبِّحْ﴾: (سبح) تَدورُ تَصْريفاتُها على مَعْنَيَيْنِ كُلِّيَّيْنِ: أَحَدهُما: ضَرْبٌ مِنَ العِبادَةِ، والآخَرُ: ضربٌ مِنَ السَّعْيِ، فمِنَ الأوَّلِ: السُّبحةُ، وهي الصَّلاةُ[6]، وتَخْتَصُّ في عُرْفِ الفُقهاءِ بالنَّفْلِ مِنْها، ومِنْهُ: التَّسْبيحُ، وهو تَنْزيهُ اللهِ سُبْحانَهُ مِن كُلِّ سوءٍ، وأَصْلُهُ مِنَ البُعْدِ، تقولُ العَرَبُ: سُبحانَ مِنْ كذا، أي: ما أبعدَهُ! ومِنَ الأَصْلِ الآخَرُ: السَّبحُ والسِّياحَةُ، وهو العومُ في الماءِ[7]، والتَّسْبيحُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾، بِمَعْنى: التَّنزيهِ[8].

4) ﴿بِذُنُوبِ﴾: (ذنب) تَدورُ اشْتِقاقاتُها عَلى ثلاثَةِ أُصولٍ، وهيَ: الجُرم، ومُؤَخَّر الشَّيْءِ، وضَرْبٌ مِن الحَظِّ والنَّصيبِ، والأَنْسَبُ لِلَفْظِ الآيةِ مِن هذِهِ الثَّلاثةِ هو الأَصْلُ الأوَّل، ومِنْهُ الذَّنْبُ؛ وهو الجُرْمُ، يُقال: أذنَبَ يُذنِبُ، والاسْمُ مِنْهُ: الذَّنبُ[9]، والذَّنب: الإثمُ، والجمعُ ذُنوبٌ، وأذنَبَ: صار ذا ذَنْبٍ، بِمَعْنى: تحمَّله[10]، وقَد قالوا: إنَّ هذا مِنَ الأفعالِ التي

(1) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/ 497.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيّ).
(3) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (حيا).
(4) الحميري، شمس العلوم: (حي).
(5) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/ 165.
(6) أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/ 50.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(8) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5305.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذنب).
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (ذنب).

لم يُسْمَع لها مصدَرٌ عَلى فِعْلها؛ لأنَّه لم يُسْمع إِذْنابٌ كإِكْرام، وقولُه ﷺ في مناجاة موسى عليه السلام: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشّعراء: 14]، عَنى به قتْلَ الرَّجل الَّذي وكزه موسى عليه السلام، فقضى عليه[1]، ويُسْتَعْمَلُ في كُلِّ فِعْلٍ يُسْتَوْخَمُ عُقْباه[2]، وغالبُ اسْتِعْمالاتِ الذَّنْبِ في القرآن خاصَّةٌ بِما يكونُ بَيْنَ العَبْدِ وربِّه، وهو شامِلٌ للصَّغائِرِ والكَبائِرِ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الأمـرُ بالتَّـوكُّـل على الحيِّ الَّذي لا يَموتُ

وتَوَكَّلْ - يا أيُّها النَّبيُّ الكريمُ - على الَّذي له الحياةُ الدّائِمَةُ الَّتي لا مَوْتَ معَها، فثِقْ بِهِ في أَمرِ ربِّك وفوِّضْ إِلَيْه، واسْتَسْلِم لَهُ، واصْبِر عَلى ما نابَكَ فيه، واعْبُدْهُ شُكْرًا مِنْكَ لَه على ما أَنْعَم بِهِ عَلَيْكَ، وحَسْبُكَ بالحيِّ الذي لا يموتُ خابِرًا بذُنوب خَلْقِه، فإِنَّه لا يَخْفى عليه شَيْءٌ مِنْها، وهو مُحْصٍ جَميعَها عَلَيْهِم حتّى يُجازيَهُم بِها يومَ القيامَةِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الجُملَةِ بِما قَبْلَها:

اشْـــتِـراكُ الـجُـمـلَـتَـيْنِ في الإِنْـشـائـيَّـةِ، واتِّـحـادُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ فيهِما

عُطِف قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، على قولِه سُبْحانَهُ قَبْلُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ لاشْتِراكِهما في الإنشائيَّة؛ إذ إنَّ كِلتا الجُملَتَيْنِ مُصَدَّرةٌ بأسلوبِ الأَمرِ، وفيهما اتِّحادٌ في المُسْنَدِ إِلَيْه - وهو ضميرُ الخطابِ المستترُ المرادُ به النَّبيُّ ﷺ - والمَعْنى: قُلْ لَهُم ذَلِكَ، وتوكَّل على اللّه سُبْحانَهُ في دَعْوَتِك إلى دينِه؛ إِذْ هو الَّذي يُجازيكَ عَلى دَعْوَتِكَ، ويُجازيهم عَلى أَعْمالِهِم[4]، وفي هذا دعوة جليَّة للوثوق اليقينيِّ به، والتَّحفيز لإسناد الأمر إليه؛

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (ذنب).
(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (ذنب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 286 - 287، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسر، ص: 365.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 59.

رَجاء استكفاءِ كلِّ شرٍّ، واستجلاب كلِّ نفعٍ، وذلك بتجنُّب الاتِّكال على الحيِّ الَّذي يطرأ عليهِ المَوْتُ، ويتوكَّل على الحيِّ الَّذي لا يموتُ، ولا تُصيبُه العوارِضُ الكثيرةُ قبلَ الموتِ، كالمَرَضِ والنِّسيانِ والموتِ الزُّؤام، وذكروا أنَّ بعض البررة من صالحي العلماء لمّا قرأها، وتأمَّل مضمونها؛ انْبَرى قائلًا: لا يصحُّ لذي عقل وثيق وإيمان عميق أَن يَثِقَ بعدَها بمخلوقٍ، مَهْما تأنَّق وصفُه أو تنمَّقَ وعدُه[1].

دِلالَةُ فِعْلِ الأَمرِ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾:

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ من قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فِعْلُ أَمرٍ، وفاعلهُ ضَميرٌ مُسْتَتِرٌ وجوبًا تقديره: أَنْتَ، والمرادُ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، والمَعْنى: وتوكَّل - يا أَكْرَمَ المُرْسَلينَ - على اللهِ تعالى وحْدَهُ، بإظْهارِ العَجْزِ والاسْتِسْلامِ والاعْتِمادِ في أَمرِكَ كُلِّه، ولا سيَّما في مواجَهَتِهم بالإنْذارِ، وفي ردِّهم عَن غيِّهم وعِنادِهم، أي: "أردتَ أنْ تتوكَّل، فتوكَّل على مَنْ ينفعُكَ، ولا يتركُكَ، على مَنْ يظلُّ على العهد معكَ، لا يتخلّى عنك، على مَنْ لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، هذه هي الفِطْنة"[2]، وهَذا الأمرُ باعْتِبارِ صُدورِهِ مِنَ اللهِ تَعالى إلى نَبيِّه ﷺ، هو دالٌّ على الوجوبِ، على ما هو الأصلُ في دِلالَةِ الأَمرِ، ويُضاف إلى ذلكَ دِلالتُه عَلى الإرشادِ؛ إذْ ذَلِكَ مِمّا لا يُنافي وُجوبَ ما أُرْشِدَ إليهِ.

إظْهارُ العَجْزِ والاسْتِسْلامِ للهِ تَعالى في الأُمورِ كُلِّها

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في دِلالَةِ ﴿عَلَى﴾ في السّياقِ:

﴿عَلَى﴾ في قول اللهِ ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ حرفٌ يُفيد في أصلِ دِلالَتِه على معنى الاسْتِعْلاء، ومناسبَتُهُ ههنا: أنَّ الوكيلَ لَمّا كان يَحْمِل عَن المَوَكِّل ثِقَلَ ما أظهرَ له عَجْزَه فيهِ، ويقومُ بأعبائِه، حتّى يَصير كَمَن يَحْمِلُ عَن الآخر أمرًا مَحْسوسًا لا

كِفايَةُ اللهِ تَعالى عِبادَهُ المُتَوَكِّلينَ عَلَيْهِ ما أَهَمَّهم مِن ضَرَرٍ أَوْ خَطَرٍ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 545.
(2) الشعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 483.

يصيرُ لَه عليهِ شيءٌ مِنْهُ أصلًا؛ جاءَ التَّعبيرُ عن هذا المَعْنى بِحَرْفِ الاسْتِعْلاء ﴿عَلَى﴾، مِن بابِ الاسْتِعارَةِ والتَّمْثيلِ[1].

سِرُّ العُدولِ عَن (وَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ):

لا يَصِحُّ التَّوَكُّلُ على الحَيِّ الذي يَموتُ مُطْلَقًا

عَدَلَ البَيانُ القرآنيُّ عَن (وتوكَّل على الله) إلى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛ لِما يُفيدُه النَّظْمُ القرآنيُّ مِن تعليلِ الأَمرِ بالتَّوكُّل عليهِ، وعدمِ صِحَّة التَّوكُّل على غيرِ المُتَّصف بِما ذُكِرَ مِن الحَياة والبَقاء، وذلك لأنَّ عدَمَ صِحَّةِ التَّوَكُّل عَلى مَن لَم يَتَّصِفْ بِالحَياة أَصْلًا - كالأَصْنام - ظاهِرٌ، وأمّا عدَمُ صِحَّةِ التَّوَكُّل على مَنِ اتَّصف بالحَياةِ، ولَكِنْ لَم يَتَّصِف بالبَقاءِ بِأَنْ كانَ مِمَّن يَموتُ؛ فلأنَّ ذلكَ دَليلُ العَجْزِ والضَّعْفِ؛ إذْ إنَّهُ إذا ماتَ؛ ضاعَ مَن تَوَكَّلَ عَلَيْهِ[2].

دِلالَةُ اللّامِ في لَفْظِ ﴿ٱلْحَيِّ﴾:

كَمالُ حَياةِ اللهِ سُبْحانَهُ

اللّامُ في ﴿ٱلْحَيِّ﴾ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ دالَّةٌ عَلى الكمالِ، أَي: هو الحيُّ الكاملُ في حياتِه، فهيَ حياةٌ لَم يَسْبِقْها عدَمٌ، ولا يَلْحَقُها زوالٌ، ولا يَعْتَريها نَقْصٌ بِأَيِّ وجْهٍ مِنَ الوجوهِ، وفي ذِكْرِ الوَصْفَيْنِ - ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ تعريضٌ بأهلِ الشِّرك الذين علَّقوا آمالَهُم بالأَصْنامِ، وهيَ أمواتٌ غيرُ أحياءٍ[3].

نُكْتَةُ وصْفِ الحَيِّ بـ ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾:

لا ضَياعَ لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلى الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ ﷻ

وُصِف الحيُّ بالَّذي لا يَموتُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛ لأنَّ الأحياءَ مِنَ الخَلْقِ يموتونَ، فلَو اكْتَفى البيانُ القرآنيُّ بـ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ﴾؛ لتَوَهَّم مُتَوَهِّمٌ جوازَ التَّوكُّل على كُلِّ حَيٍّ، ولكنَّ اللهَ تعالى بيَّن أنَّ حياتَهُ ليسَتْ كَحياةِ غَيْرِه، فإنَّ حياتَهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 413.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 37، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 59.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 59.

سُبْحانَهُ كاملَةٌ دائِمَةٌ، فلا ضَياعَ لِمَن تَوَكَّل عليهِ، بِخلافِ مَن توكَّل عَلى حيٍّ يموتُ؛ فإنَّه إذا ماتَ المُتَوَكَّلُ عليهِ؛ ضاعَ المُتَوَكِّل[1].

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ التَّوَكُّلِ:

وُجوبُ التَّوَكُّلِ عَلى اللهِ تَعالى مِن أُصولِ الهِدايَةِ

حُذِفَ متعلِّقُ فِعْلِ التَّوَكُّل في قولِ الله تَعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لإفادَةِ العُمومِ؛ إذ إنَّ حذْفَ المُتَعَلِّق مُؤْذِنٌ بذلكَ، والمَعْنى: توكَّل عليهِ في جَميعِ أُمورِكَ، ومِنْها في الاسْتِكْفاءِ عَن شُرورِهِم، والإغْناءِ عَن أُجورِهِم، فإنَّ اللهَ سُبْحانَهُ هو الحقيقُ بأَنْ يُتوكَّل عليهِ في جَميعِ ذَلِكَ[2].

دِلالَةُ التَّسْبيحِ في الفعل ﴿وَسَبِّحْ﴾:

وُجوبُ تَنْزيهِ اللهِ تَعالى عَمّا لا يَليقُ بِهِ: مِنْ أُصولِ الاعْتِقادِ الصَّحيحِ

التَّسْبيحُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾، يُراد به تَنْزيهُ اللهِ تَعالى عمّا لا يليقُ بِهِ، وهو أَظْهَرُ معانيهِ، ومنها تنزيهُهُ عن صفاتِ النُّقصانِ، والثَّناء عليه بنعوتِ الكمالِ؛ طلبًا لمزيدِ الإنعامِ بالشُّكرِ على سَوابغِه المغدقة، وعطاياه المجزيَة، ممّا لا ينقضي عددًا، ولا ينتهي مددًا[3].

وحَمَلَهُ بعضُ أهلِ العِلْمِ عَلى التَّسبيحِ نفسه بالقَوْلِ، وهو قولُ: سُبْحانَ اللهِ، وهَذا المَعْنى لا يُنافي ما تقدَّمَ، بَل إنَّ التَّسبيحَ بالقَوْلِ يواطِئُ تنزيهَ اللهِ تَعالى عمّا لا يليقُ بِهِ عِنْدَ الصّادقِ في قولِهِ، وذهَبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ التَّسبيحَ هُنا، بِمَعْنى الصَّلاة، وهو غيرُ ظاهرٍ[4].

مَعْنى الباءِ في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ ودِلالَتُها:

مُصاحَبَةُ التَّسْبيحِ لِلثَّناءِ عَلَيْهِ ﷻ

الباءُ في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ تدُلُّ على المُصاحَبَةِ، والمَعْنى: سَبِّحْهُ تَسْبيحًا مُصاحِبًا الثَّناء عليهِ تَعالى بِما هو أَهْلُهُ[5].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 476 - 477، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 413.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 226.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 226.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 477.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 59.

نُكْتَةُ الجَمعِ بَيْنَ التَّسْبيحِ والتَّحْميدِ:

تَـنْـزيـهُ الـلـهِ تَـعـالى عَـنِ النَّقائِصِ وإثْباتُ الكَمالاتِ لَهُ

في الجَمعِ بين التَّسْبيحِ والتَّحْميدِ، في قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾، جمعٌ للنَّبيِّ ﷺ في هذا الأَمرِ بينَ التَّخْليَةِ والتَّحْليةِ، فالتَّخْليَةُ في التَّسبيحِ؛ لأنَّه تنزيهُ اللهِ تَعالى عمّا لا يليقُ بِهِ، والتَّحْليَةُ في التَّحميدِ؛ لأنَّ فيهِ وصفَ اللهِ تَعالى بالكَمالاتِ، وقُدِّمت التَّخْليةُ في الآيةِ؛ لأنَّ شأنَ الإِصْلاحِ، أن يُبدأ بإزالَةِ النَّقائِصِ[1].

دِلالَةُ العَطْفِ في ﴿وَكَفَىٰ﴾:

كِفايَةُ اللهِ تَعالى عِبادَهُ: مِن لُطْفِهِ بِهِم، وعَطْفِهِ عَلَيْهِم

العَطْفُ في لفظ ﴿وَكَفَىٰ﴾ من قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ واقِعٌ عَلى غَيْرِ مذكورٍ، والتَّقدير: (فكَفى بِهِ لَك نَصيرًا، وبِذُنوبِ عبادِهِ خَبيرًا)؛ وذلكَ لأنَّه لَمّا كانَ المُسَلَّى رُبَّما وقعَ في فِكْرِه أنَّ مَن سلّاهُ إمّا غيرُ قادرٍ على نَصْرِه أو غيرُ عالمٍ بجرائِمِ خَصْمِه، وكانَ السّياق لِلشَّكْوى مِن إعْراضِ المُبَلَّغين عنِ القُرآن الكريم وما يَلْحَقُ ذلكَ مِنَ الأَذى؛ أشارَ بالعَطْفِ عَلى غَيْرِ مَذْكورٍ إلى أنَّ التَّقديرَ: (فَكَفى بِهِ لَكَ نَصيرًا)[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الكِفايَةِ في ثَنايا الآيَةِ:

التَّـحْـذيـرُ مِـنْ مُخالَفَةِ أَمرِ اللهِ تَـعـالى مَـلْـمَـحٌ مُهِمٌّ في السّياقِ

اخْتيرَ التَّعْبيرُ بِلَفْظِ الكِفايَةِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ لِكَوْنِها كلمَةً يُرادُ بِها المبالَغَةُ؛ إذْ هو بِمَعْنى الحَسْبِ، أي: لا تَحْتاجُ مَعَهُ إلى غَيْرِه؛ لأنَّهُ خبيرٌ بِأَحْوالِهِم قادِرٌ عَلى مُجازاتِهِم، وهذا فيهِ وعيدٌ شديدٌ وتَهْديدٌ أكيدٌ، كأنَّهُ قالَ: إنْ أَقْدَمتُم عَلى مُخالَفَةِ أَمرِه؛ يَكْفيكُم عِلْمُهُ في مُجازاتِكُم بِما تَسْتَحِقّونَهُ من العِقابِ[3].

دِلالَةُ الباءِ في شِبْهِ الجُملَةِ ﴿بِهِۦ﴾:

تَأْكيدُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِذُنوبِ عِبادِهِ

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ يُراد بِها التَّأكيدُ والتَّحْقيقُ، ففي قولِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 59.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 413.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 477.

تحقيقٌ وتأكيدٌ لِعِلْمِ اللهِ تَعالى بذُنوبِ العِبادِ، وما يَلْزَمُ ذلكَ مِنَ التَّهديدِ والوعيدِ[1].

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾:

بَـيـانُ عُـمـومِ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِأَحْـوالِ العِبادِ ظاهِرِها وباطِنِها

في إضافَةِ الذُّنوب إلى العِباد في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ دِلالَةٌ عَلى العُمومِ؛ لأنَّ الجَمعَ المُضافَ مِن الصِّيَغِ المُفيدَةِ العُمومَ، ويكونُ المَعْنى عمومَ عِلْمِهِ سُبْحانَهُ بِذُنوبِ عِبادِهِ الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ[2]، وفي إضافَةِ العِباد إلى الضَّمير العائدِ إلى اللهِ تَعالى - ﴿عِبَادِهِۦ﴾ عمومٌ آخَرُ، والمُرادُ: عُمومُ النّاسِ[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿خَبِيرًا﴾:

إحـاطَـةُ الـلـهِ سُبْحانَهُ بِجَميعِ ذُنوبِ العِبادِ

في التَّعبيرِ بلفظ ﴿خَبِيرًا﴾ من قولِ اللهِ سُبْحانَه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ إيماءٌ إلى إحاطَةِ عِلْمِه سُبْحانَهُ بِجَميعِ ذُنوبِ العِباد، وذلكَ لأنَّ الخبيرَ هو العالِمُ بِبَواطِنِ الأمورِ، وإذا كانَ اللهُ سُبْحانَهُ عالِمًا بِبَواطِنِ ذُنوبِ العِباد؛ فهو عالِمٌ بِظَواهِرِها مِن بابٍ أَوْلى، فكانَ في التَّعْبيرِ بـ ﴿خَبِيرًا﴾ عمومٌ آخر، يُضافُ إلى العُمومَيْنِ المُتَقَدِّمَيْنِ، المُسْتَفادَيْنِ مِنَ الإضافَةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾[4].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في سياقِ الآيَةِ:

بيانُ مُجازاةِ اللهِ تَعالى عِبادَهُ عَلى ذُنوبِهِم

العِلْمُ بالذُّنوبِ المذكورُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ كنايةٌ عَن لازمِهِ، وهو أنَّ اللهَ سُبْحانَهُ يُجازي العبادَ على تِلْكَ الذُّنوب[5].

بَلاغَةُ التَّعْريضِ في الآيَةِ الكَريمَةِ:

تَـسْـلـيَـةُ الـلـهِ تَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ دَلـيـلٌ تَـعْـظـيـمٍ وتَبْريزٍ

في قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ تعريضٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 414.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 226، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 37.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 60.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 60.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 60.

بِتَسْلِيَةِ النَّبيِّ ﷺ على ما يُلاقيه مِن أَذى المُعانِدين المُعارِضين دَعْوَتَه[1]، والمَعْنى: أنَّ اللّه تَعالى مُطَّلِعٌ عَلى ذُنوبِ عِبادِهِ، بِحَيْثُ لا يَخْفى عليهِ مِنْها شَيْءٌ، فيُجازيهِم عَلَيْها، ولا عليكَ - أيُّها النَّبيُّ الكَريمُ - إن آمَنوا، أَوْ كَفَروا[2].

دِلالَةُ الاعْتِراضِ التَّذْييليِّ:

عُمومُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِذُنوبِ العِبادِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ اعْتِراضٌ في آخِرِ الكَلامِ، فيُفيد مَعْنى التَّذْييلِ، وهو تَذْييلٌ غيرُ جارٍ مَجْرى المَثَلِ؛ لعَدَمِ اسْتِقْلالِهِ بِنَفْسِه، وافْتِقارِهِ إلى غَيْرِهِ في فَهْمِ تمامِ المُرادِ مِنْهُ، وهو دالٌّ على عُمومِ عِلْمِهِ سُبْحانَهُ بِذُنوبِ عبادِهِ، ومِن ذَلِكَ ذُنوبُ المُشْرِكين الَّذين جاءَ الكلامُ فيهِم أَصالةً[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذُّنوب والآثام:

الذَّنْبُ أَعَمُّ مِنَ الإِثْمِ

الذُّنوبُ جَمعُ ذَنْبٍ، وهوَ في اللُّغةِ: الجُرْمُ والمعصيَةُ، أمّا الآثام؛ فجمعُ: إثم، وهو في اللُّغَةِ يدلُّ على البُطْءِ والتَّأخُّر عنِ الخَيْرِ، مِنْ قولهم: ناقَةٌ آثِمَةٌ، أي: متأخِّرةٌ في سَيْرِها؛ وذلك لأنَّ صاحِبَ الإثْمِ بطيءٌ عَنِ الخيرِ مُتَأخِّرٌ عَنْهُ.

وقد جاءَ الذَّنْبُ في القُرآنِ الكريمِ مُفْرَدًا ومَجْموعًا، فمِنَ الأوَّل قولُ اللّه تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: 40]، وقولُه سُبحانَهُ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: 11]، ومن الآخَرِ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: 11]، وقولُهُ تَعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: 6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 60.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 37.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 59 - 60.

وتدلُّ اسْتِعْمالاتُ لفظِ الذَّنْبِ في القُرآنِ الكَريمِ عَلى أنَّ الذَّنْبَ أعمُّ مِنَ الإثْمِ، والخَطيئَةِ، والسَّيِّئة، والحوبِ ونحوِها؛ لِشُمولِهِ الصَّغائرَ والكَبائِرَ، كَما يَعُمُّ كُلَّ أَمرٍ لا تُحمَدُ عقباهُ، كَما قالَ اللّهُ تَعالى حكايةً عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشّعراء: 14]، فجَعَلَ لَهُم عَلَيْهِ ذَنْبًا، أي: جِناية تُسْتَوْخَمُ عُقباها عِنْدَهُم، وغالبُ اسْتِعْمالاتِ الذَّنْبِ خاصَّةٌ بِما يكونُ بَيْنَ العَبْدِ وربِّهِ.

وأمّا الإثْمُ؛ فقَدْ وردَ في القُرآنِ الكَريمِ في مَواضِعَ، مِنْها: قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33]، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: 58]، وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12]، وغير ذلك.

وتدلُّ استعمالاتُ لفظةِ الإثمِ – في القرآن الكريم – على أنَّ الإثم فِعْلٌ قبيحٌ مُتَعَمَّدٌ تنفرُ مِنْهُ النَّفْسُ، ولا يطمئنُّ إليهِ القَلْبُ، وهوَ مِمّا يوجِبُ الذَّمَّ واللَّوْمَ، كما أنَّه يشمَلُ الصَّغائرَ والكبائرَ، واستعمالُها في الكبائرِ أَغْلَبُ[1].

العِباد والعَبيد:

غالِبُ اسْتِعْمالِ (العِبادِ) في الطّائِعينَ للهِ تَعالى، واسْتِعْمالِ (العَبيدِ) فيما يُقابِلُ الأَحْرارَ

العبادُ والعبيدُ كلاهما جمعُ عَبْدٍ، إلّا أنَّ العبادَ جَمعُ عَبْدٍ، وهوَ العابِدُ، أمّا العبيدُ؛ فهو جَمعُ عبْدٍ، وهوَ خلافُ الحُرِّ، وأمّا في الاستعمالِ القُرآنيِّ؛ فيَرِدُ لفظُ (العباد) للإيماءِ إلى عِباد اللّه الطّائعين المُخْلِصينَ لَهُ العبادَةَ غالبًا، ولذا يَنْسِبُهُم اللّهُ سُبحانَهُ إليهِ تشريفًا لَهُم، كما في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: 42]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا

(1) محمَّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية: 31 - 41.

عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]، ومِنْ غيرِ الغالِبِ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ [الإسراء: 17]، وفي هَذا إيماءٌ إلى أنَّ ذُنوبَهُم خالَفَت ما يَنْبَغي أن يَكونوا عَلَيْهِ مِنْ سُلوكِ سَبيلِ الطّاعَةِ.

وأمّا لَفْظُ (العبيد)؛ فهوَ في الأصلِ دالٌّ على المُسْتَعْبَدينَ مِنَ النّاسِ، وهُم أقَلُّ مَرْتَبةً مِنَ الأحرارِ في مَقاييسِ المُجْتَمَعاتِ، ولذا يُستعمل هذا الجَمعُ في القرآنِ الكريم غالبًا في مَوضع التَّحقير وتصغير الشَّأن، كما في قول اللّه تَعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ [آل عمران: 181 - 182][1].

(1) محمَّد خضر ياس الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 308 - 309.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»